كيس الدنانير (١)

أبو غياث عالم عابد يسكن مكة – شرفها الله وحفظها – عمره ٨٦ سنة يعيش في بيت صغير جداً هو وزوجته وأم زوجته وأختاه وبناته الأربع ، يعيش حياة تحت مستوى خط الفقر بكثير .. وبكثير جدا . فمن شدة فقره ، كان أفراد العائلة التسعة لا يملكون إلا ثوباً واحداً يصلح للصلاة .. فكان أبو غياث يصلي فيه بالحرم ثم يعود لينزعه ويعطيه زوجته ثم حماته ثم أختيه ثم بناته الأربع .. وهكذا حاله وحالهنّ في كل صلاة . أما باقي الأثواب والملابس فهي ممزقة قصيرة بالية لا تستر ما يجب ستره وقت الصلاة .

في اليوم الثالث من رمضان وبعد صلاة العصر .. قالت أم غياث لأبي غياث : يا أبا غياث .. هذا هو اليوم الثالث من رمضان ولم نذق شيئاً إلا التمر والماء وشيئاً من الخبز اليابس ، فاخرج لعلك تجد ما يشبع البطن لفطورنا هذه الليلة . فقال أبو غياث : أخرج إن شاء الله . فخرج أبو غياث في ذلك العصر صائما يدور في أزقة مكة لعله يجد شيئاً من الرزق هنا أو هناك .

(١) المصدر : كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري .. بتصرف .

obeikandl.com

خرج أبو غياث على أمل ضعيف أن يراه أحد المسلمين فيرحم حاله ويعطيه من بعض طعام الإفطار اللذيذ الذي ما ذاقته عائلة أبي غياث منذ زمن بعيد . وبعد جهد كبير من المشي اليائس في مدينة تخلو من الأنهار والزروع والبساتين ، لم يجد أبو غياث في مكة إلا الرمل الملتهب والهواء الحار والأبواب الموصدة . لقد هرب الناس إلى بيوتهم مستظلين بها من شمس مكة الحارقة وحرها ، فخلت الطرقات من الناس والمحسنين الذين ينشدهم أبو غياث . لذا فإن أبا غياث وقبيل أذان المغرب واستحياءً منه أن يرجع إلى زوجته وبناته وليس معه طعام .. توجه إلى الحرم المكي الشريف يصلي المغرب فيه ويأكل من طعام بعض المحسنين - الذين يتسابقون في هذا الوقت الفاضل على إطعام ضيوف الرحمن - فيوفر بعض حبات التمر لأفراد عائلته الفقيرة .

في اليوم الرابع وبعد صلاة العصر وبعد إلحاح أم غياث .. خرج أبو غياث هائماً على وجهه في طرقات مكة للمرة الثانية يطوف شوارع مكة لعله يجد فيها طعاماً أو عملاً يشتري من أجرته قطعاً صغيرةً من اللحم لبنياته الأربع الجوعى وزوجته وحماته وأختيه . لكن كان حال اليوم الرابع كالثالث ، لا شيء .. لا شيء في شوارع مكة أبداً . ومرة أخرى يلوذ إلى الحرم

الشريف يصلي المغرب فيه ليهرب من لوم البيت الجائع والنظرات العاتبة .

في اليوم الخامس وبعد صلاة العصر ، يخرج أبو غياث كالعادة إلى الشارع .. فهذا اليوم الخامس من رمضان ولم تذق العائلة غير الماء والتمر . خرج أبو غياث يمشي ويمشي حتى أعياه التعب وبلغ به اليأس مبلغاً ، فتوقف عن المشي واستظل بحائط لبيت في مكة يستريح من هذا المشي المهلك . كان يمشي في مكة صائماً جائعاً عطشاناً .. مكة الوادي الحار ، النادر مطره القليل زرعه . قعد تحت هذا الحائط وبيده عصاً ينكت بها الأرض ، يفكر بحاله وحال أهله وشدة فقره ، ويفكر بعجزه عن توفير لقمة كريمة لأسرته في هذا الشهر الفضيل . وفي أثناء هذا التفكير و في أثناء تحريكه الرمل بعصاه ، تحرك ثعبان عند موضع العصا .

انتبه أبو غياث إلى الثعبان القاتل وقرب عضته السامة المميتة من قدمه ، فوثب من مكانه مبتعداً عنه . التقط أبوغياث أنفاسه .. وأخذ من بعيد يراقب الثعبان الذي ظل هادئاً ساكناً لم يتحرك . تعجب أبو غياث من سكون الثعبان ، فاقترب بحذر منه يراقبه . لم يكترث الثعبان بقرب أبي غياث منه ، وبقي على حاله الأولى ساكناً جاثماً في مكانه .

اقترب أبو غياث من الثعبان أكثر وأكثر ، وأخذ يحركه ويستثيره بعصاه . ورغم ذلك .. ورغم طعنات العصا وكل ذلك التحرش ، لم يتحرك الثعبان أبداً .

ليس هذا بثعبان ، إنه طرف قماش أصفر مدفون . فأخذ أبوغياث يحفر عن هذا القماش حتى اخرجه من الأرض . فإذا هو كيس كبير ثقيل تملؤه قطع من المعدن لها رنة وصوت اصتكاك جميل بين قطعها . التفت أبو غياث حوله فلم يرَ أحداً من الناس .. فالكل مستظل ببيته هارب من حر الشمس ولهيبها . فتح أبو غياث خيط الحرير الذي شُدَّ به الكيس ، وأخرج بعض القطع ، فإذا هي دنانير ذهبية ، الدينار الواحد منها يساوي ثمنه ثمن كبشين كبيرين . عدّ أبو غياث قطع الذهب بسرعة ، فإذا هي ألف دينار ذهبي . يا لها من ثروة يا أبا غياث .. ماذا ستفعل بها ؟

أخذ أبو غياث يشرق بالمال ويغرب ، سأشتري بيتا جميلاً لعائلتي ، سأشتري خيلاً ونوقاً وأبقاراً وخرافاً ، سأشتري أحلى ملابس الحرير لأهلي وبناتي ، سنشتري أطايب الطعام والشراب وأشهاه . راح أبو غياث في نشوة العثور على هذه الثروة الضخمة يحلم بالمستقبل الوردي السعيد

openkandil.com

الذي ينتظره وينتظر عائلته الكريمة .

وفي أثناء هذه النشـوة العابرة ، تذكر أبو غياث (العالم العابد) أنَّ هذا المـال ليـس ملكاً له بعد حتى يتصرف به كما يحلـو له ، إنما هذا المال هو لقطة - كما يسـمِّيها الفقهاء - يجب أن يعرِّف بها سـنة كاملة حتى يجد صاحبها . فهذا مبلغ ضخم من المال وليس مالاً تافهاً حتى ينساه صاحبه ويزهد فيه . آه إذاً هذا المال ليس من حقي بعد ، لا بد لي من التعريف به سنة كاملة . فوق همّي وفقري وقلة حيلتي ، عليَّ الآن مسؤولية وهمٌّ جديد وهو البحث عن صاحب المال .. يا لحظي العاثر . ليتني ما عثرت على هذا المال أبداً ، ليتني أسـتطيع أن أدسه بالتراب مرة ثانية وأنساه .. هكذا كان أبو غياث يحدث نفسه .

لكن أبا غياث شـخص عالم يعرف أنَّ اللقطة إذا وجدها لا يسـتطيع أن يضيعهـا أو يعيدها حيـث كانت ، فهي الآن أصبحت في أمانته وجزءاً من مسـئوليته ، ولا بُدَّ له من البحث عن صاحبها سـنة كاملة . بسرعة وبعيـداً عن أعين الناس ، خبأ أبو غياث الكيـس والدنانير تحت ثيابه ، ثم حرك رجليه بخطوات واسـعة قاصداً بيته ليخفي هذا الكنز العظيم

obeikandl.com

فيه .

فلمـــا دخل البيـت وجـد زوجتـه أم غياث بانتظاره قائلةً لـه : بشِّـــر يا أبا غياث هل وجدت طعاماً لفطورنا اليـوم ؟ فقال وفي قوله ارتباك ظاهـر : لا ، يرزقنا الرزاق غداً إن شاء . فقالت بفطنة المرأة الحبيبة القريبة من زوجهـا العارفة بأحوالـه : هل هناك ما تخفيه عنــي ؟ إنا قد اعتدنا على هروبك إلى المســجد في هذا الوقت .. أبا غياث ما بك ؟ قال : نعم هناك ما أخفيه عنك يا أم غياث ، لكني لن أخبرك به حتى تعاهديني أنك لن تفشي هذا السر أبداً .

فقد كان أبو غياث يخشــى من انتشار خبر عثوره على الدنانير أن يأتي المُدَّعــون يطرقون بابه طمعاً بهــذا المال وهذه الثروة الكبيــرة . فقالت أم غياث : أعاهدك أني لا أفشي سرك أبداً . قال : وجدت كيساً فيه ألف دينار مــن الذهــب .. ها هو الكيس تحــت ثوبي قد خبأته ، فإن شــئت فافتحيه وانظــري إلى دنانيــره . فقالت : وما أنت فاعل بهذا المال ؟ قال : سأســعى جاهداً أن أجد صاحبه وأردَّ إليه ماله كاملاً غير منقوص . فسكتت أم غياث

وانصرفت إلى شئون بيتها .

في اليوم السادس من رمضان ، وبعد أن أدى أبو غياث صلاة العصر بالمسجد الحرام ، قام رجل من خراسان - بلاد إيران وأفغانستان اليوم - يصيح بأعلى صوته : يا أهل مكة من وجد كيساً فيه ألف دينار فليرده عليَّ .. يا أهل مكة من وجد كيساً فيه ألف دينار فليرده عليَّ .. يا أهل مكة من وجد كيساً فيه ألف دينار فليرده عليَّ .. يرددها ثلاث مرات . فقام له أبو غياث كأنه رجل ناصح له من أهل مكة وقال : يا خراساني إنَّ بلدَنا بلدٌ فقير ، العمل فيه قليل والمحتاجون فيه كثير ، فلو جعلت للذي وجد المال جائزة من هذه الألف ، فتعطيه عُشْر المبلغ - يعني مئة دينار - لعله يرده عليك . فقال الخراساني : لا وأجره على الله .

لقد كان أبو غياث يحاول أن يفوز بمئة دينار من هذا المال قبل أن يرده للخراساني .. لعله ينتشل بها نفسه وأهله من هذا الفقر المدقع البئيس ، لكن محاولته تلك باءت بالفشل . رجع أبو غياث إلى بيته وحكى لزوجته ما كان من أمر الخراساني معه في الحرم ، فاستمعت أم غياث بإنصات لزوجها ولم تعلق بكلمة ، ثم انصرفت بهدوء كالعادة إلى شئون بيتها .

في اليوم السابع وبعد صلاة العصر، قام الرجل الخراساني نفسه صارخاً بجموع المسلمين : يا أهل مكة من وجد كيساً فيه ألف دينار فليرده عليَّ .. يرددها ثلاثاً . فقام له أبو غياث مرة ثانية وقال : يا خراساني بالأمس قلت لك اجعل للذي وجد الكيس عُشْر المبلغ .. واليوم أقول لك اجعل له عُشْر عُشْر المبلغ - يعني عشرة دنانير - لعله يرده عليك . فقال الخراساني : لا وأجره على الله .

فرجع أبو غياث إلى بيته حزيناً، وحكى لزوجته ما حصل مع الخراساني في اللقاء الثاني . وهنا نطقت أم غياث وقالت : يا أبا غياث .. لا تنظر إلى حالي وإلى حال أمك وأختيك .. فنحن قد اعتدنا على ألم الجوع والحرمان والصبر منذ زمن، لكن انظر إلى حال بناتك .. هذا اليوم السابع من رمضان ولم يذقنَّ إلا التمر والماء، لقد أصبحن هزيلات ضعيفات يعتصرُهُنَّ ألم الجوع والفقر، انظر إلى أثوابهن البالية الممزقة المرقعة .. يا أبا غياث لو أنك أخذت من هذا الكيس ديناراً واحداً ما ضرَّ هذا المال الكثير أبداً، دينار واحد تطعم به أهلك وتنقذهم مما هم فيه . يا

opelkandi.com

رجل نحن نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة ، ولا شاة لنا اليوم ولا زرع . يا أبا غياث خذ من هذا المال ديناراً واحداً أشبعنا به فإننا جوعى ، واكسنا بــه فأنــت بحالنا أوعى ، فلعلّ الله عز وجل يغنيــك بعد ذلك ، فتعطيه ما نقص من ماله بعــد إطعام عيالك ، أو يتجاوز الله عنك لفقرك وحاجتك يوم يكون الملك للمالك .

ســكت أبو غياث قليلاً .. وأخذ ينظر إلى بناته اللاتي ســمعنَّ ما قالت أمهــنَّ لــه ، فتقاطر دمعه ، وتنهد تنهد المكلــوم الحزين ، ثم قال لزوجته : آآكل حراماً بعد ســتة وثمانين عاماً بلغها عمري ، وأحرق أحشــائي بالنار بعد أن صبرت على فقري فأســتوجب غضب الجبار وأنا قريب من قبري ؟ لا والله لا أفعل .

ثــم التفت إلى بناته وهنَّ مجتمعات قد ســمعن ما قالت أمهنَّ له فقال : إنكنَّ والله عزيزات على قلبي قريبات مني ، تقرُّ عيني بكنَّ وتســعد ، أفرح حين تفرحن وآلم حين تألمن وأجوع حين تجعن ، لكن هذا المال أمانة عندي وأنا اليوم عليه مســئول . يا بنياتي .. دينار واحد أسعدكنَّ اليوم به سيكون

عذاباً وناراً على أبيكنَّ يوم الحساب . إني اليوم أقوى على الجوع والفقر ، لكني لا أقوى على نار أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت وألف سنة حتى ابيضت وألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء داكنة كالقار . يا بنياتي .. إنَّ النار عظيمة ، عليها ٧٠ ألف زمام ، على كل زمام يجره منها ٧٠ ألف ملك ، لو رفَّ الواحد منهم بجناحه لخسف الأرض بمن فيها . يا عزيزاتي .. إنَّ النار عميقة ، يهوي الكافر والمنافق فيها ٧٠ سنة حتى يستقر في قاعها . يا حبيباتي .. إنما الدنيا أيام معدودة ، أو شجرة نستظل بظلها سويعات ثم نغادرها .. فلنصبر ولنحتسب .

عندها بكى الجميع ، وأقبلت البنات يقبلنَّ رأس والدهنَّ ويديه ويرددن .. فدتك أنفسنا يا أبي وسلمت من كل شر ومكروه . وهكذا في معظم الأحيان العقل والتقوى ينقذان صاحبهما من الهلاك والفتن .

في اليوم الثامن من رمضان وبعد صلاة العصر ، قام الخراساني في صحن الحرم المكي الشريف ينادي في المسلمين : يا أهل مكة من وجد كيساً فيه ألف دينار فليرده عليَّ .. يرددها ثلاثاً كعادته . فقام له أبو غياث للمرة الثالثة وقال : يا خراساني بالأمس أمس قلت لك اجعل للذي وجد الكيس

عشر المبلغ ، وبالأمس قلت لك اجعل له عشر عشر المبلغ ، واليوم أقول لك اجعل له عشر عشر عشر المبلغ .. ديناراً واحداً يا خراساني يشتري بنصفه شاة يطعم بها نفسه وعياله ، ونصف دينار يشتري بها قربة تكون له منها مهنة يسقي حجيج الله ماء زمزم . فسكت الخراساني يفكر في الأمر .. ثم قال : لا وأجره على الله .

اغتمَّ أبو غياث لهذا الرفض العنيد وهذا البخل الأكيد .. فقد كانت تلك هي الفرصة الأخيرة لانتشاله من هم الفقر وإنقاذ أهله من الجوع القاتل .. لكنه ذكر الله وقال : لا بُدَّ للكيس أن يرجع لصاحبه كاملاً غير منقوص ، فقد باءت كل حيل التفاوض بالفشل . انتظر أبو غياث حتى ينصرف الناس لأعمالهم وتعمى الأعين المتطفلة عنه ليُرْجِع بخفاء وهدوء الدنانير الذهبية لصاحبها الخراساني . أخذ أبو غياث يراقب الخراساني من بعيد وينتظر خروجه من المسجد الحرام . فلما خرج الخراساني من المسجد متوجهاً إلى فندقه القريب ، ناداه أبو غياث في غفلة من الناس وقال : يا خراساني .. إن الكيس الذي تبحث عنه إنّما هو عندي محفوظاً مصاناً ، فالحق بي رحمك الله .

openkandl.com

في كل تلك الأيام الثلاثة التي كان الخراساني ينادى بها في الناس كان هناك من يراقب الموقف .. إنه محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) صاحب كتاب تاريخ الأمم والملوك المشهور بتاريخ الطبري . الطبري الذي شغفته تلك المحاورة بين الخراساني وأبي غياث ، فتبع أبا غياث والخراساني ينظر ماذا يحدث بينهما من جديد .

دخل أبو غياث داره القديمة المتهالكة يريد كيس الدنانير ليدفعه إلى الخراساني ، فأخرج الكيس من مخبئه وأهله وبناته ينظرون إلى هذا الكيس نظرة الوداع الأخيرة عليه . لقد ضاع أمل الغنى ، ضاع المال الذي رجونا أن يسدَّ جوعنا وينقذنا مما نحن فيه من بؤس وحرمان . لقد انتزع خروج هذا المال من بيت أبي غياث قلوب أهله وبناته معه .. الوداع أيها الكيس العزيز ، وداعاً لا لقاء بعده .

خرج أبو غياث بالمال وأعطاه الخراساني الذي كان منتظراً بالخارج . ففكَّ الخراساني خيط الكيس المعقود به وعدَّ الدنانير جميعها ، فإذا هي ألف دينار ذهبي لم تنقص ديناراً واحداً . ربط الخراساني الكيس وانصرف بهدوء

من غير أن يشكر أبا غياث على أمانته ولو بكلمة واحدة . يقول الطبري الذي يراقب الموقف : لا أدري أي نوع من الرجال هذا الخراساني؟ أي لؤمٍ هذا وأي بخل ؟ رجل يُرْجِع لك ألف دينار ذهبي ، فلا أنت الذي أعطيته منها ولا أنت الذي شكرته . يا إلهي ما هذه القلوب القاسية المتحجرة ؟! لقد أحسست أني أنا المصاب المكلوم لا هؤلاء المساكين .

لكن بعد لحظات .. رجع الخراساني يطرق باب أبي غياث .. ما الخبر ؟ فتح أبو غياث الباب وقال : هل نسيت شيئا يا خراساني ؟! قال الخراساني : اسمع يا أبا غياث .. إنَّ أبي ترك لي ثلاثة آلاف دينار ، فأوصاني بها وقال : ألفٌ هي لمعاشك – يعني لطعامك وأهلك وبيتك ودابتك – ، وألفٌ هي يا بنيَّ لطلبك للعلم .

لقد كان الأولون يحثون أبناءهم على طلب العلم وقصده والسفر له أينما كان ، لأن العالم المخلص العابد كانت شهرته وهيبته تبلغ مراتب الخلفاء والأمراء وقد تفوقهم أحياناً . فهذه زوجة هارون الرشيد – رحمه الله – تنظر من نافذة منزلها إلى زوجها الخليفة وقد تجمع الناس حوله في الرقة (مدينة في سورية) يسلمون عليه ويشكرون زيارته مدينتهم . لكن

الناس وبعد لحظات انفضوا عن الرشـيد وأخذوا يتسابقون لرؤية القادم الجديد ذي القدر العالـي الرفيع .. إنه العالم العابد المجاهد عبدالله بن المبارك – رحمه الله – هنا قالت زوجة الرشيد وهي تنظر لكل تلك الأحداث : هذا هو الملك لا ملك الرشيد .

يقول الشاعر ..

واعلـم بـأن العلم ليـس يناله   مـن همه فـي مطعـم أو ملبس
فاجعل لنفسـك منه حظاً وافراً   واهجـر له طيـب الرقاد وعبس
فلعـل يوما إن حضـرت بمجلس   كنت الرئيس وفخـر ذاك المجلس

يكمل الخراساني وصية أبيه ويقول : وألف ثالثة أعطيها لأفقر من أجد في مكـة ، ولم أجـد في مكة أفقر منك يا أبا غياث ، فخذها مني هنيئاً مريئاً . وهنـا .. نزلت دموع أبي غيـاث وأهله وبناته الذين سـمعوا من وراء الباب كل ما قاله الخراسـاني . لقد بكى الجميع فرحاً مـن هذه العطية الربانية الكبيـرة التي تَعْـرِف للتقي النقي صبره وخوفه . لقـد كان الجميع يطمح بدينـار واحدٍ فقط ، لكن المنعـم الكريم المتفضل ضاعف الدينار ألف مرة ..

قال تعالى { ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب } .

يقــول الطبري وهــو يراقب ما حدث : لقد بكيت مــع دار أبي غياث كثيراً فرحاً بما ظفروا به وفازوا ، وفرحاً بفرج الله الذي نزل عليهم ، واليسر الكبير الذي حلَّ بهم .

وهنا وعند هذا المشــهد الأخير من القصة الذي أسـعدني وأبكاني فرحاً ، هممت بالرجوع إلى الحرم الشريف مرة ثانية ، فما أن خطوت أولى خطواتي حتى ســمعت صوت أبي غياث يناديني : يا هذا أقبــل ، يا هــذا أقبل . فقال الطبــري : أتعنينــي بحديثـك يا رجل . قال أبو غياث : نعم أعنيك أنت .. فقــد كنت أعلم بمراقبتك لنا أنا وأخي الخراســاني ، لكن همومي الكثيرة شــغلتني عنك وعن تتبعك . لقد حضرت هذه الأعطية العظيمة والفضل الكبير الذي وهبنا الله إياه ، ولســوف نقســم لك منها . نحن تسعة نفر في البيت وأنت أكملت بنا العشــرة ، فهــذه مئة دينار لك فبارك الله لك فيها . يقول الطبرى : فرحت بهذه المئة دينار كثيراً ، لكن ما دخل قلبي من سرور غناهم كان أشد فرحاً عليَّ من تلك الدنانير .

يقــول الطبــري : شــكرت أبا غياث علــى كرمه وإحســانه ، فلمــا أردت

الانصـــراف قال لي أبـــو غياث : يا فتى اعلم أني كنت أقوم فأصلي الفجر في هـــذا القميص البالي ، ثم أخلعه حتى يصلـــي أهلي وبناتي واحدة واحدة ، ثم أخرج للعمل إلى ما بين الظهر والعصر ، ثم أعود في آخر النهار بما فتح الله عز وجل علي من تمر وكســيرات خبز ، ثم أخلع ثيابي مرة ثانية لأهلي وبناتـــي فيصلين فيه الظهر والعصر ، وهكذا فى المغرب والعشــاء الآخرة . مـــا كنّا نتصور أن نرى هـــذه الدنانير أبداً ، فنفعهنَّ الله بما أخذن ، ونفعني وإياك بما أخذنا ، ورحم صاحب المال في قبره ، وأضعف الثواب لولده وشكر الله له .

ثم يكمل الطبري آخر حديثه عن هذه القصة فيقول : ودعت أبا غياث وانصرفت إلى شـــأني . فكتبت العلم بهذا المال ســـنتين أتقوت به وأشـــتري منه الورق وأسافر وأعطي الأجرة ، لقد كان هذا المال مالاً مباركاً انتفعت به خير انتفاع في رحلتي لطلب العلم .

لقد كان المال في زمن الطبري ضرورة يتعفف به طالب العلم عن ســؤال الناس أو الســـلاطين معاشـــه وطعامه وكســـوته ومـــأواه ، وزاداً لا غنى عنه للتنقل بين الأمصار شـــهوراً وأعواماً للتعلم والسماع من الشيوخ ، وعوضاً

لا بديل عنه لشـراء الكتب والأوراق والأقلام والأحبار . لذا فمسألة الفقر والحاجة مشـهورة عنـد كثير من أهل العلم ، وقلَّ عالـم إلا وأفلس مرة أو مرات .

فهذا الإمـام أبوحنيفة يبيع بعض سعف بيته ليتعلم . والإمـام أحمد بن حنبل يعمل حمّالاً في اليمن ليسمع الحديث من شيوخها . وأم الشافعي ترهن ثوبها بـ ١٦ ديناراً حتى يسافر ولدها إلى العلماء والفقهاء . ويحيى بن معـين إمام الجرح والتعديل ينفق أكثر مـن مليون درهم ورثها عن أبيه في طلب الحديث .. حتى إنه لم يبق له بعد إنفاقها نعال يلبسها . ويرث الإمام البخاري وأخوه أحمد من أبيهما مليون درهم ، فينفق البخاري نصيبه من ميراثه كله في طلب العلم ، حتى أنه أفلس ولم يجد له ثياباً يلبسها . يقول محمـد بن أبي حاتم الورّاق : سـمعت البخاري يقول : أكلت من حشـيش الأرض مرة ، لأني ما وجدت طعاماً آكله .

كان الإمام عبدالله بن المبارك ينفق على كبار المحدِّثين والشيوخ في عهده حتى يعفهم عن السـؤال ويفرغهم للتحديث وتعليم الناس ، فكان يقول : لولا خمسـة ما اتجرت .. وهم : حماد بن سـلمة ، وحماد بن زيد ، وسفيان

الثوري ، وسفيان بن عيينة ، والفضيل بن عياض .

هذا الإمام الحافظ اللغوي النضر بن شميل لما ضاقت معيشتة بالبصرة وأراد السفر إلى خراسان ، قال لمودعيه الذين بلغوا ثلاثة آلاف رجل بين عالم وطالب علم : يا أهل البصرة يعز عليَّ فراقكم ، ووالله لو وجدت كل يوم باقلاء ما فارقتكم .. فتركوه يرحل وما تكفَّل له أحد بتلك اللقيمات من الباقلاء . فرحم الله هؤلاء الأئمة الفضلاء وغفر لهم جميعاً .

وهذا الإمام النحوي أبو حسن الفالي يضطره الإفلاس والعوز إلى بيع نسخته الوحيدة من كتاب الجمهرة لابن دريد . باعها للشريف المرتضى بستين ديناراً ، وكانت في غاية الجودة والإتقان ذات خط واضح جميل . وقبل أن يُسلمها للشريف المرتضى كتب على جلدة الكتاب من الداخل هذه

أنست بها عشرين حولاً وبعتها فقد طال شوقي بعدها وحنينِ
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهل شئوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهنّ ضنين

الأبيات :

فلما فتح الشريف المرتضى النسخة وقرأ على جلدتها الأبيات التي يرثي بها أبو الحسن حاله ونسخته الوحيدة الحبيبة التي ودَّعها ، رقَّ لحاله وأرجع له الكتاب وترك الستين ديناراً له .

فصدق الذي سمَّى المال بلغة يتبلغ به طالب العلم إلى آماله وغاياته ، وصدق الشاعر العارف الذي عدَّ المال عاملاً من عوامل ستة ضرورية

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

للنجاح في إتقان العلوم وتحصيلها فقال :

يقول الطبري : وبعد ستة عشر عاماً .. ذهبت إلى مكة وسألت عن الشيخ أبي غياث المكي ، فقيل لي : إنه قد مات وماتت زوجته وأمها والأختان ولم يبق إلا البنات الأربع . سألت عنهنَّ فوجدتهنَّ قد تزوجن بملوك وأمراء . فلقد تسابق الملوك والأمراء عليهنَّ لما انتشر خبر صلاح والدهنَّ في الآفاق . فكنت أنزل على أزواجهنَّ فيأنسون بي ويكرمونني حتى توفاهنَّ الله . فبارك

قال النّبي صلى الله عليه وسلم :

« إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »

متفق عليه

فأين من دوّخوا الدنيا بسطوتهم   وذِكْرِهِم في الورى ظلمٌ وطغيانُ

أين الجبابرة الطاغون ويْحَهُموا   وأين من غرّهم لهوٌ وســلطانُ

هــل خلَّــد الموتُ ذا عــز لعزته   أو هل نجى منه بالسلطان إنسانُ

لا والذي خلق الأكوانَ من عدمٍ   الــكل يفنى فلا إنــسٌ ولا جانُ

obeikandl.com